

أضواء البيان

@ 264 : { تَقَاتِلُوا ذِي أَوْدٍ يُسْلِمُونَ } إلى غير ذلك من الآيات . .

واعلم : أن لبعض أهل العلم في بعض الآيات التي ذكرنا أقوالاً غير ما ذكرنا . ولكن هذا التدرج الذي ذكرنا دل عليه استقراء القرآن في تشريع الأحكام الشاقة ، ونظيره شرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده ، فلما أراد الله أن يحرم الخمر حرمها تدريجاً . فذكر أولاً بعض معائبها كقوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْذَرٌ لِلَّذِينَ اسْتَأْنَسَتْ نَفُوسُهُمْ فِي الْخَمْرِ أَنْ يُكْذَبُوا عَنْهَا وَمَنْذَرٌ لِمَنْ أَتَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ آمَنُوا بِمَا كَانُوا يُكْفَرُونَ } . فلما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إنما أكثر مما فيها من النفع ، حرمها عليهم في أوقات الصلاة بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } . فكانوا بعد نزولها ، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة ، وذلك بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادة . وكذلك ما بين الصبح والظهر . وهذا تدرج من عيبها إلى تحريمها في بعض الأوقات . فلما استأنست نفوسهم بتحريمها حرمها عليهم تحريماً عاماً جازماً بقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسْبَاطُ وَالْأَسْوَاطُ زَلَامٌ رَجِسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } إلى قوله : { فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ } وكذلك الصوم ، فإنه لما كان الإمساك عن شهوة العرج والبطن شاقاً على النفوس ، وأراد تعالى تشريعه شرعه تدريجاً فخير أولاً بين صوم اليوم وإطعام المسكين في قوله : { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } فلما استأنست النفوس به في الجملة ، أوجبه أيضاً إيجاباً عاماً جازماً بقوله : { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلَا يَصُومْهُ } وقال بعض أهل العلم : التدرج في تشريع الصوم على ثلاثة مراحل كما قبله قالوا : أوجب عليهم أولاً صوماً خفيفاً لا مشقة فيه وهو صوم يوم عاشوراء وثلاثة من كل شهر ، ثم لما أراد فرض صوم رمضان شرعه تدريجاً على المرحلتين اللتين ذكرناهما آنفاً ، هكذا قالت جماعات من أهل العلم ، وله اتجاه والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { وَإِنَّ اللَّهَ } على نصوصهم لَقَدِيرٌ } يشير إلى معنيين . .

أحدهما : أن فيه الإشارة إلى وعده للنبي وأصحابه ، بالنصر على أعدائهم كما قال قبله قريباً : { إِنَّ اللَّهَ يُدْافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا } . .

والمعنى الثاني : أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على الكافرين من غير قتال

